



ANNALES ISLAMOLOGIQUES

en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne en ligne

AnIsl 40 (2006), p. 139-153

Šarqī Al-Rizqī

المقرنسات الحمّادية ووجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسط.
Al-muqarnasāt al-ḥammādiyya wa wighāt intišārihā al-muḥtamala fī mintaqat al-ḥawḍ al-ġarbī min al-baḥr al-abyaḍ al-mutawassiṭ.

Conditions d'utilisation

L'utilisation du contenu de ce site est limitée à un usage personnel et non commercial. Toute autre utilisation du site et de son contenu est soumise à une autorisation préalable de l'éditeur (contact AT ifao.egnet.net). Le copyright est conservé par l'éditeur (Ifao).

Conditions of Use

You may use content in this website only for your personal, noncommercial use. Any further use of this website and its content is forbidden, unless you have obtained prior permission from the publisher (contact AT ifao.egnet.net). The copyright is retained by the publisher (Ifao).

Dernières publications

9782724711622	<i>BIFAO 126</i>	
9782724711059	<i>Les Inscriptions de visiteurs dans les Tombes thébaines</i>	Chloé Ragazzoli
9782724711455	<i>Les émotions dans l'Égypte Ancienne</i>	Rania Y. Merzeban (éd.), Marie-Lys Arnette (éd.), Dimitri Laboury, Cédric Larcher
9782724711639	<i>AnIsl 60</i>	
9782724711448	<i>Athribis XI</i>	Marcus Müller (éd.)
9782724711615	<i>Le temple de Dendara X. Les chapelles osiriennes</i>	Sylvie Cauville, Oussama Bassiouni, Matjaž Kačnik, Bernard Lenthéric
9782724711707	????? ?????????? ??????? ???? ?? ???????	Omar Jamal Mohamed Ali, Ali al-Sayyid Abdelatif
???	????? ?? ??????? ??????? ?? ????????? ?????????????	
????????????	???????????? ??????? ??????? ?? ??? ??????? ???????:	

المقرنسات الحمّادية ووجهات انتشارها المحتملة فى منطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسط

تباين آراء وأحكام دارسى العمارة الإسلامية وفنونها الزخرفية بشأن المقرنسات الحمّادية فى بلاد المغرب الإسلامى خلال القرنين ٥-٦ هـ / ١١-١٢ م، تبايناً واضحاً إلى حدّ التناقض الصّارخ. فمنهم من فنّد حقيقة وجود المقرنسات الحمّادية، تفنيدياً قاطعاً شأن الباحث العراقى ياسر الطّباع^١. ومنهم من أثار التّريث، وعدم التّسرّع فى إبداء الأحكام القاطعة، وتفضيل الاكتفاء بتصرّيات عامّة، مفتوحة على كلّ احتمال وارد مستقبلاً كالفرنسى ميشيل إيكوشار، الذى يقول بالحرف الواحد: «قد نجد فى قصور القلعة الحمّادية عيّنات مهمّة، إلّا أنّ ضحالة نشرها حالت دون دراستها»^٢. ومنهم من كان له إطلاع حسن بخفايا العمارة الحمّادية بشمال إفريقيا، فأقرّ وجود عنصر المقرنسات بمدينة القلعة (شكل ١) من غير أن يؤثّق موقفه بأدلة دامغة، مكثفياً فى ذلك بما يوحى به حسّه الشّخصى، مثل اللّواء الفرنسى ليون دو بيل^٣، والباحث اللّامع جورج مارسى^٤، وهنرى تيراس^٥، والباحث الإسبانى فيرنونداز پويرتاس^٦. ومنهم من ذهب إلى أبعد من ذلك بكثير، شأن الباحث الفرنسى، المتوفى فى الآونة الأخيرة لوسيان جولفان، الذى بذل قصار جهده فى سبيل استقطاب اهتمام جمهور المختصّين فى مجال المقرنسات الإسلامية صوب مكتشفاته الأثرية

- L. de Beylie, *La kalaa des Beni-Hammad: une capitale berbère dans l'Afrique du Nord au XI^e siècle*, Leroux, Paris, 1909, p. 39.^٣
- G. Marçais, *L'architecture musulmane d'Occident (Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et la Sicile du IX^e au XII^e siècle)*, Arts et métiers graphiques, Paris, 1954, p. 103.^٤
- H. Terrasse, *La mosquée Al Qarawiyyin à Fès*, Éditions Klincksieck, Paris, 1968, p. 32.^٥
- A. Fernandez Puertas, «Mukarnas», *EI² VII*, 1993, p. 500-501.^٦
- حول مفهوم مصطلح «المقرنسات»، ومعالجة أبرز إشكالاته التاريخية، واللغوية، والوظيفية، أنظر الفصل التمهيدى من رسالة الباحث: «تطوّر المقرنسات فى عمارة المغرب الإسلامى خلال القرنين ٥-٧ هـ / ١١-١٣ م»، رسالة ماجستير (غير منشورة)، مُعدّة تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد العزيز لعرج، والدكتور عقّاب محمد الطّيب، معهد الآثار، جامعة الجزائر، ٢٠٠٠ م.
- T. Yesser, «The Muqarnas Dome; its Origin and Meaning», *Muqarnas 5*, E.J. Brill Leiden, 1985, p. 61-74.^١
- M. Écochard, *Filiation de monuments grecs, byzantins et islamiques. Question de géométrie*, librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1977, p. 61.^٢

الرائدة بخرائب القلعة الحمّادية (شكل ٢) خلال الفترة الممتدة بين سنتي ١٩٤٩-١٩٦٢م^٧؛ ومؤرّخ الفنّ الإسلامى الكبير أولج جرابار الذى اعتبر من جهته أنّ القلعة الحمّادية لا تنطوى على بقايا المقرنسات فحسب، وإنّما تتعدّاه إلى تبوّئها مرتبة المركز الجهوي، المقابل لمركز شرق إيران بمشرق الخلافة الإسلامية في مجال ابتكار المقرنسات، والعمل على ترويجها بالمناطق المحاذية لها في بلاد الغرب الإسلامى، وجنوب القارة الأوروبية على وجه الخصوص^٨.

ومن ثم يتبادر للأذهان إثارة الأسئلة الآتية: لماذا كلّ هذا التّجاذب في الرّأى حول حقيقة المقرنسات الحمّادية؟! كيف غاب أمرها على مؤرّخي المقرنسات الإسلامية في أعمالهم المسّحية الشّاملة لمختلف أنحاء أراضى الخلافة، شأن أعمال الألمانين چين روزنتال^٩، وإيدموند پوتى^{١٠}، والفرنسى هوت كور^{١١}، والإنجليزى جونتان بلوم^{١٢}، والعراقى حيدر كامل^{١٣}، والألمانية إيفون دولد سومبليينوس^{١٤} على سبيل الذكر لا التّخصيص والحصص؟ أين مكان حفظ بقايا المقرنسات الحمّادية اليوم بغرض الإطّلاع عليها مجدّداً، وفحصها عن قُرب، وفضّ الخلاف بتأكيد الأمر، أو نفيه بشكل مُطلق؟ وإذا ما سلّمنا جدلاً بثبوت وجود المقرنسات في المباني الحمّادية، فهل من السّهل التّسليم بلعبها دور المركز الجهوى على الصّعيد الإقليمى في مجال ابتكار وترويج المقرنسات بمنطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسط بأسره، وهى المدينة العسكرية المنيعه، المستندة إلى جبل شاهق على ارتفاع ألف وأربعمئة متر عن معدل سطح البحر؟! ماذا لو كان هذا الرّأى الأخير صائباً في مزاعم طرحه، فهل من تداعيات لمراجعة ما تقدّم تقريره إلى حدّ الآن بخصوص المقرنسات الإسلامية؟

١. تنبيهات هامّة حول المقرنسات الحمّادية وبيان مواضع التقاطها وأماكن حفظها

قبل الشّروع في تقديم، وتجميع، ومناقشة أبرز البقايا الأثرية، المتوفرة اليوم حول المقرنسات الحمّادية، والمحافظة حالياً بكلّ من متحف سرتا بقسنطينة (شكل ١١)، ومتحف سطيف (شكل ٥) الوطنيين، ومن المفروض متحف الآثار

^٧ E. Pauty, «Contribution à l'étude des stalactites»,

BIFAO 29, 1929, p. 129-153.

^٨ L. Hauteccœur, «De la trompe aux mukarnas», *La gazette des beaux arts* 6, p. 27-51.

^٩ M. Jonathan Bloom, «The Introduction of the Muqarnas in Egypt», *Muqarnas* 5, 1985, p. 21-28.

^{١٠} كامل حيدر، الخصائص التّخطيطية للمقرنسات، سلسلة العمارة العربية الإسلامية، دار الفكر اللبناني، الطّبعة الأولى، ١٩٩٤م.

^{١١} شرقي الرزقى، «فصل حساب سطح المقرنسات للرياضى الإيراني جمشيد غياث الدين الكاشى (دراسة وتحقيق)»، محاضرة ألقيت في أشغال الملتقى المغاربي الثالث للمخطوط، المنعقد بالجزائر العاصمة أيام ٢٦-٢٨ نوفمبر ٢٠٠٥ (تحت الطّبع).

^{١٢} L. Golvin, «Note sur quelques fragments de plâtre trouvés

récemment à la Qal'a de Banû Hammad», *Mélange d'histoire et d'archéologie d'occident musulman (Hommage à Georges Marçais)* 2, Imprimerie du gouvernement général, Alger, 1957, p. 75-93; *id.*, «Fouille archéologique à la Qal'â de Beni Hammad», *Bulletin de l'Académie des inscriptions et belles-lettres*, Éditions Klincksieck, Paris, 1963, p. 392; *id.*, «Les plafonds à Muqarnas de la Qal'â des Banû Hammad et leur influence possible sur l'art de la Sicile à la période normande», *Romm* 17, 1974, p. 63-69.

^{١٣} O. Grabar, *The Alhambra*, Harvard University, Cambridge, Massachusetts, 1978, p. 175.

^{١٤} J. Rosintal, *Pendentifs, trompes et stalactites dans l'architecture orientale*, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1928.

^{١٥} O. Grabar, *The Alhambra*, Harvard University, Cambridge, Massachusetts, 1978, p. 175.

^{١٦} J. Rosintal, *Pendentifs, trompes et stalactites dans l'architecture orientale*, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1928.

^{١٧} O. Grabar, *The Alhambra*, Harvard University, Cambridge, Massachusetts, 1978, p. 175.

^{١٨} J. Rosintal, *Pendentifs, trompes et stalactites dans l'architecture orientale*, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1928.

القديمة بالجزائر العاصمة أيضاً (شكل ٦)°. وكذا جملة الصور التي خلفها مُكتشفها لوسيان جولفان في مؤلفاته المتعددة (الأشكال ٧ - ١٠)، يجدر بنا المقام، التنبيه إلى ثلاث ملاحظات في منتهى الأهمية:

أولاً: أنّ هذا المجهود من البحث، والتقصّي العلمي، ما يزال جزئياً في نتائجه، بيد أنّ قصر النّجم، أو الكوكب (شكل ٢) ما يزال بكراً، ولم تطله أشغال الحفر الأثرى بعد. وهو الشيء نفسه يقال على العاصمة الإدارية الحمّادية الأولى مدينة أشير بعين بوسيف (شكل ١)، والتي سكنها الحمّاديون قبل أن يبتنوا مدينة القلعة، مدّة ثلاث وعشرين سنة، وتحديدًا خلال الفترة الممتدة بين ٣٦٥-٣٩٨هـ / ٩٨٤-١٠٠٧م على وجه التقريب^{١٦}. والتي قد تُحدث لنا مفاجأة سارّة حول هذا الموضوع في غضون الحفريات المستقبلية بها^{١٧}. خلافاً لمدينة بجاية ثالث عاصمة للحمّاديين (شكل ١)، والتي - وإن كانت لم تُحفر بعد - إلا أنّها تبقى بعيدة، ومتأخّرة زمنيّاً عن الجدول العلمي القائم حالياً حول تاريخ، ومكان ظهور المقرنسات الإسلامية بصفة عامّة، والقبة المقرنسة منها بصفة خاصّة.

ثانياً: أنّ هذه العينات الواردة في هذه الدراسة، يُرجّح فرضية عدم الإطلاع عليها من قبل مؤرّخي المقرنسات في العالم؛ وأنّ كلّ ما تمّ الإطلاع عليه بالنسبة لهم في أحسن الظروف هو نموذج الشكل ٥ والشكل ٦ حيث تفضّل الباحث جورج مارسيه بنشرهما في بعض أعماله الهامة حول الآثار الإسلامية بشمال إفريقيا^{١٨}. وكذا نموذج الشكل ٧ الذي تفضّل تلميذه لوسيان جولفان نشره في كتابه القيم حول نتائج حفرياته الأولى والثانية بقلعة بني حمّاد^{١٩}.

إذ كرّر هذا الباحث ما نشره أستاذه من قبل بخصوص المقرنسات الحمّادية، إضافة إلى عرضه تلك القطعة الهامة من جملة بقايا المقرنسات التي التقطها عام ١٩٥٦م من أنقاض قصر السلام (شكل ٣ والأشكال ٧-١٠). وقد أعانه مارسيه على تصوّر موضِعها الصحيح في نسيج المقرنسات الذي كانت تنتمي إليه هذه الأخيرة (شكل ٧ ب)، بناءً على مقارنتها الموقّعة بين هذه الأخيرة، وبين مقرنسات الحنّيات الرُّكنية بكنيسة بلاتين الثورماندية (شكل ٧ ج)، الواقعة بعاصمة جزيرة صقلية، مدينة پالرم.

ومن ثم أصبحت هذه العينات الثلاث، الشاهد الوحيد، الدال على استخدام المقرنسات في تنسيق مباني القلعة الحمّادية على حدّ اعتقاد جمهور مؤرّخي المقرنسات بصفة خاصّة، ومؤرّخي الفنون المعمارية الإسلامية بصفة عامّة؛ فجات أحكامهم بشأنها شديدة التباين، كما سلفت الإشارة.

الوطنية لحماية الآثار، والمتحف الوطني للآثار القديمة، ومركز البحث في عصور ما قبل التاريخ مع مستهلّ عقد تسعينات القرن العشرين، إلا أنّ الأقدار لم تكتب لها أن تتواصل بسبب الأزمة السياسية الناجمة عن توقّف المسار الانتخابي عام ١٩٩١م، ودخول البلاد في حُمّى العنف السياسي، حيث تعرضت تجهيزات الحفر الأثرى هناك في بحر عام ١٩٩٣م إلى عمل إجرامي، أدى إلى حرق عتاد الحفر، ومعسكر الإقامة، وإتلاف الكثير من البقايا الأثرية التي كانت مخزّنة في مستودع المعسكر؛ ومنذ ذلك الحين عُلق الحفرة إلى يومنا هذا.

^{١٨} G. Marçais, *Poteries et faïences de la Qal'â des Beni Hammad au XI^e siècle*, D. Abraham, Constantine, 1913, p. 39-40.

^{١٩} L. Golvin, *Recherches archéologiques à la Qal'a des Banû Hammad*, Maisonneuve et Larose, Paris, 1965, p. 124-125.

^{١٥} أقصد أنّ هذا المتحف، كان يحفظ العينة الحجرية الوحيدة (شكل ٦)، التي تمّ العثور عليها من طرف اللواء دو بيلي، ومساعدته الباحث مارسيه في حفريتها القائمة عام ١٩٠٨م، إلا أنّ شُغْل منصب «مُحافظ للتراث الأثرى، والمتحفى، والتاريخي» بذات المتحف، مكلف بجرّد، وتثمين المجموعات الإسلامية، لم يسمح لي بالعثور على هذه العينة. وهو ما يوحى إلى احتمال تحويلها إلى متحف جرينوبل، مسقط رأس اللواء دو بيلي الذي حوّل معه غداً استقلال الجزائر عام ١٩٦٢م كلّ التحف المهمة التي عثر عليها بالقلعة، وهي الآن محفوظة إما بمتحف الفنون الزخرفية بباريس، أو بمتحف جرينوبل السابق. أو احتمال ضياعها بطريقة ما من المتحف. ولذلك فإنّ دراستها، ستكون مرتكزة على الصور التي التقطها لها دو بيلي غداً اكتشافها عام ١٩٠٨م، وكذا التفريغ الذي خصّها به مارسيه.

^{١٦} شرقى الرزقي، «تطوّر المقرنسات»، ص ٨٠.

^{١٧} الواقع أنّ هذا الموقع الأثرى عرف تنظيم حفريات أثرية مشتركة بين الوكالة

ثالثاً: إن جميع هذه العينات قد تم نشر صورها من طرف الباحث جولفان عبر مؤلفاته العديدة. فإلى جانب تحدّثه عن العينتين اللتين التقطهما دو بيل عام ١٩٠٨م (شكلا ٥ و ٦) في كتابه «أبحاث أثرية في قلعة بني حمّاد»، نجده قد تحدّث وعرض صور مقرنسات قصر السلام (الأشكال ٧-١٠) كاملة في مقال قيّم بعنوان «عرض لبعض القطع الجصّية الملتقطة حديثاً من قلعة بني حمّاد»، الذي نشره سنة ١٩٥٧م^{٢٠}. وفي ذات السنة أعاد نشر بعضها في كتابه «المغرب الأوسط خلال العهد الزيري»^{٢١}؛ قبل أن يُعاوَد الحديث عنها مرّةً ثالث في مُداخلةٍ ألقاها سنة ١٩٦٢م، حول نتائج حفريّاته الأثرية الأخيرة بالقلعة. إلاّ أنّه في هذه المرّة لم ينشر لها أيّة صورة، أو تفريغ^{٢٢}. كما نجده قد تحدّث وعرض صور مقرنسات قصر المنار (شكل ٤ وشكل ١١) في مقال خاصّ تحت عنوان جذاب: «السقوف المقرنسة في قلعة بني حمّاد وتأثيرها المحتمل على الفن الصقليّ خلال العهد التورماندي»^{٢٣} قبل أن يُعيد مراجعة بعض آرائه وأحكامه السابقة في كتابه الأخير: «المغرب خلال القرون الوسطى»، والذي اشترك في تأليفه مع نخبة من العلماء^{٢٤}. ولعل الأرجح في كلّ هذا، أنّ جميع مؤلفاته هذه لم تقع في أيدي مؤرّخي المقرنسات وقت صدورهما على ما يبدو، إذا ما استثنينا مرجعه الأخير، الذي لم يورد فيه صوراً ذات أهميّة لهذه المقرنسات وهو ما يفسّره بوضوح غياب المقرنسات الحمّادية في مؤلّفات مؤرّخي المقرنسات الإسلامية قديماً وحديثاً.

٢. عرض لأبرز عينات المقرنسات الحمّادية

النموذج الأوّل: ويُعرف هذا النوع من المقرنسات لدى أهل الفنّ المعماري بـ «الدّليات المتوازية السطوح» (parallélépipèdes) (شكل ٥). قوامها قطع فخارية مستطيلة الشكل، مُزدانة بأخاديد جانبية مثلثة الشكل (شكل ٥ ب)، إضافة إلى تجويف نصف كروي صغير، يشغل مركز قاعها السفلي، المتدلى في فضاء المبنى (شكل ٥ ج). حيث نجدها مُجمّعة في هيئة هرم مُدرّج مقلوب الرأس نحو الأسفل (شكل ٥ أ)، وهو مُكوّن من أربعة مستويات متطابقة، أعلاها مكون من أربع قطع متجاورة، ثمّ تليه طبقة المستوى الثاني في اتجاه الأسفل دائماً بثلاث قطع، فالمستوى الثالث بقطعتين، ثمّ المستوى الأخير بقطعة واحدة. علماً أنّ توضع هذه القطع مع بعضها البعض يكون بانحصار مُنتظم، مقداره نصف طول القطعة المستطيلة رأسياً، ونصف عرضها أفقيّاً. شُغل مظهرها الخارجي، المُسدل في فضاء المبنى باللون البنيّ ذي اللّمعان الباهت، وباقي قسمها المولج بين الجدران، وبين بعضها البعض من غير طلاء (شكل ٥ ب). أي بشكله الطّبيعي (اللّون الأحمر القرميدي).

كما لا يفوتنا في هذا المقام التذكير بأنّ أبعاد هذه القطع المتشابهة متساو، حيث طول الواحدة منها ١٧٤ ملم، وعرضها ٤٥ ملم، ممّا يوحى للدّارس أنّ طريقة تشكّيل هذه الأخيرة، قد كانت بالقولبة على مستويات متقدّمة (ورشة)، وليس التشكّيل اليدوي كما قد يتبادر إلى ذهن البعض. فيما يُقدّر عرض الأخدود الرّخرفي الذي يشقّها بـ ١٨ ملم (شكل ٥ ب)،

L. Golvin, «Fouille archéologique à la Qal'â de Beni

L. Golvin, «Note sur quelques fragments»^{٢٠}

Hammad».

L. Golvin, *Le Maghreb central à l'époque des Zirides*.^{٢١}

L. Golvin, «Les plafonds à Muqarnas».^{٢٣}

Recherches d'archéologie et d'histoire, Arts et métiers

L. Golvin et al., *Le Maghreb médiéval*, Edi-sud, Aix-en-

graphiques, Paris, 1957, p. 203.

Provence, 1991, p. 264.

وقطر قَعْرَ قَاعِهَا الظَّاهِرَةَ مِنَ الْأَسْفَلِ فِي هَيْئَةِ رُؤُوسِ أَرْبَعَةِ سِهَامٍ مُتَّحِدَةٍ رَأْسِيًّا، نَتِيجَةُ وَصُولِ حُدُودِ الْأَخَادِيدِ الْجَنْبِيَّةِ إِلَيْهَا بِنَحْوِ ٢٠ مِلْمٍ (شَكْلٌ ٥ج). أَمَّا مَادَّةُ لَصِقِ هَذِهِ الْقَطْعِ بِبَعْضِهَا بَعْضًا فَهِيَ مَوْنَةُ الْجِصِّ الْمُحَلِّيَّةِ، سِمَةٌ عَمَائِرِ الْمَنَاطِقِ السَّهْبِيَّةِ، وَالصَّحْرَاوِيَّةِ الْحَارَّةِ، شَأْنُ الْقَلْعَةِ وَغَيْرِهَا إِذْ تَمَّ الْعَثُورُ عَلَيْهَا بِأَعْدَادٍ هَائِلَةٍ مِنْ طَرَفِ اللَّوَاءِ دُو بَيْلِ سَنَةِ ١٩٠٨ م بِقَصْرِ الْأَمْرَاءِ (شَكْلٌ ٢ وَشَكْلٌ ٥) فِي بَادئِ الْأَمْرِ، قَبْلَ أَنْ يَتَوَالَى الْعَثُورُ عَلَيْهَا فِي بَقِيَّةِ الْمَبَانِي الْقَلْعِيَّةِ الْأُخْرَى بِكَمِّيَّاتٍ وَافِرَةٍ فِي غَضُونِ الْأَبْحَاثِ الْأَثْرِيَّةِ اللَّاحِقَةِ، الْمَقَامَةِ مِنْ قَبْلِ جَوْلْقَانِ وَالْبَاحِثِ الْجَزَائِرِيِّ بُوْرُوِيَّةِ رَشِيدِ عَامِ ١٩٦٨ م.

وَإِذَا كَانَ الْبَاحِثُ جُورْجُ مَارْسِيهَ يَرَى بِأَنَّهَا كَانَتْ تُشَكَّلُ، إِذَا أُشْرَطُ زُخْرَفِيَّةً مُسْتَمِرَّةً، أَوْ مُتَقَطَّعَةً عَلَى مَسْتَوَى التَّهْيَاةِ الْعُلُوبِيَّةِ لِلْجُدْرَانِ مِنَ الدَّخْلِ وَمِنَ الْخَارِجِ عَلَى حَدِّ سِوَاءٍ؛ وَأَنَّ زُخْرَافَ مِمَّاثِلَةٍ لَهَا قَدْ عُرِفَتْ بِكَنِيسَةِ حَلْبِيَّةِ، الْوَاقِعَةِ عَلَى أَحَدِي ضَفْتِي نَهْرِ الْفِرَاتِ؛ وَأُخْرَى بِتِيْجَانِ جَامِعِ مَدِينَةِ إِصْفَهَانَ الْإِيرَانِيَّةِ^{٢٥}. فَإِنَّ الدَّارِسَ لَا يُشَاطِرُهُ الرَّأْيَ كُلَّهُ بِالنَّظَرِ إِلَى حَجْمِهَا، وَطَبِيعَةِ الْمَوَادِّ الْأَوَّلِيَّةِ الْمُتَّخَذَةِ مِنْهَا، وَدُونَ الْأَخْذِ بِعَيْنِ الْإِعْتِبَارِ الْفَارِقِ الزَّمْنِي بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَالِمِ الْمَذْكُورَةِ. وَيُرْجَّحُ بِشَأْنِهَا فَرْضِيَّةَ اسْتِخْدَامِهَا فِي تَنْمِيقِ الْوَاجِهَاتِ الدَّخَالِيَّةِ لِلْمَبَانِي الْمَفْتُوحَةِ عَلَى أَفْنِيَّةٍ مَرْكَزِيَّةٍ، وَلَعَلَّ مَا يُدْعَمُ صِحَّةَ هَذَا الْإِفْتِرَاضِ هُوَ الْعَثُورُ عَلَى بَقَايَا أَنْوَاعٍ أُخْرَى مِنَ الْمَقْرِنَسَاتِ أَكْثَرَ جَمَالًا، وَأَقْلَّ خَشُونَةً مِنْ هَذِهِ الْأَخِيرَةِ، أَضْفَى إِلَى ذَلِكَ الطَّبِيعَةَ الْعَسْكَرِيَّةَ لِمَدِينَةِ الْقَلْعَةِ، مِمَّا يَجْعَلُهَا بَلَا رَيْبٍ مُهْمَلَةً التَّنْمِيقِ مِنَ الْخَارِجِ فِي مَقَابِلِ الْحَرَسِ عَلَى تَحْصِينِهَا الْمُنِيعِ.

أَمَّا عَنِ مَسْأَلَةِ تَارِيخِهَا، فَيُمْكِنُ إِعَادَتَهَا إِلَى السَّنَوَاتِ الْأُولَى مِنْ بِنَاءِ مَدِينَةِ الْقَلْعَةِ مِنْ غَيْرِ تَحْرُّجٍ لِإِعْتِبَارِ بِنَائِهَا أَسَاسِيًّا: وَأَوَّلُهَا كَوْنُ الْقَصْرِ الَّذِي وَجِدَتْ بِهِ هُوَ أَقْدَمُ قُصُورِ قَلْعَةِ بَنِي حَمَّادٍ. وَالَّذِي قَدْ يُعْزَى تَأْسِيسَهُ إِلَى مُؤَسَّسِ الدَّوْلَةِ حَمَّادِ بْنِ بَلَكِينِ عَلَى حَدِّ رِوَايَاتِ الْكُتُبِ التَّارِيخِيَّةِ، وَالْجُغْرَافِيَّةِ، وَالْأَدْبِيَّةِ، الْمُتَحَدِّثَةِ عَنِ الْقَلْعَةِ. وَثَانِيهَا بِسَاطَةِ هَذِهِ الْمَقْرِنَسَاتِ مِنْ كُلِّ التَّوَاحِي الْفَنِّيَّةِ وَالزُّخْرَفِيَّةِ، مِقَارَنَةً مَعَ بَقِيَّةِ التَّنَازِجِ الْأُخْرَى. وَهِيَ بِذَلِكَ تُعْتَبَرُ أَقْدَمَ وَأَبْسَطَ نَمُودَجٍ عَرَفَهُ الْحَمَّادِيُّونَ فِي مَجَالِ التَّنْمِيقِ بِعَنْصَرِ الْمَقْرِنَسَاتِ فِي عِمَارَتِهِمُ الْقَلْعِيَّةِ.

النمودج الثاني: وتمثله عيّنة وحيدة، منقورة في الحجر الصّلب (شكل ٦) ^{٢٦}. قوامها كتلة حجرية (monolythe) نصف كروية الشكل، أبعادها ١٠٠ × ٦٠ سم ^{٢٧}. مُرْدَانَةُ الْبَطْنِ بِثَلَاثَةِ صَفُوفٍ مُتَطَابِقَةٍ مِنَ التَّجَاوِيفِ الْهَنْدَسِيَّةِ، الْمُنْحَوْتَةِ عَلَى هَيْئَةِ «خَلِيَّةِ النَّحْلِ»؛ حَيْثُ تَمَّ الْعَثُورُ عَلَيْهَا مِنْ طَرَفِ اللَّوَاءِ دُو بَيْلِ أَيْضًا فِي السَّفْحِ الشَّرْقِيِّ، الَّذِي يُطِلُّ مِنْهُ قَصْرُ الْمَنَارِ عَلَى وَادِي فَرَجِ السَّحْقِيقِ. وَقَدْ عَتَبَرَهَا الْبَاحِثُ جُورْجُ مَارْسِيهَ، مِنْذُ سَاعَةِ اكْتِشَافِهَا، كَأَقْدَمِ أَنْمُودَجٍ لِلْمَقْرِنَسَاتِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ الْإِسْلَامِيِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ، حَيْثُ يَقُولُ بِشَأْنِهَا مَا نَصَّه بِالْحَرْفِ الْوَاحِدِ: «تُشَكَّلُ الْكُتْلَةُ الْحَجْرِيَّةُ الْمُنْحَوْتَةُ عَلَى هَيْئَةِ «خَلِيَّةِ نَحْلِ»، أَقْدَمُ نَمُودَجٍ لِلْمَقْرِنَسَاتِ الْمَغْرِبِيَّةِ...، وَمِنَ الْإِنْصَافِ الْإِعْتِرَافِ بِذَلِكَ»^{٢٨}. كَمَا قَالَ فِي مَنَاسِبَةٍ سَابِقَةٍ: «وَجُودِ عَيِّنَاتٍ تُذَكِّرُنَا بِخَلَايَا النَّحْلِ فِي الْعِمَارَةِ الْحَمَّادِيَّةِ، مَصْدَرِ اسْتِلْهَامِ الْمَقْرِنَسَاتِ، هُوَ دَلِيلٌ كَافٍ عَلَى وَجُودِ هَذِهِ الْأَخِيرَةِ، بَلْ هُوَ تَأْكِيدٌ لَهَا»^{٢٩}. وَهُوَ فِعَالًا مَا أَكَّدَتْهُ أَبْحَاثُ جَوْلْقَانِ لِأَحْقًا.

^{٢٧} L. de Beylie, *La kalaa des Beni-Hammad*, p. 39. id., «Une capitale berbère au XI^e siècle», *JournAs* 12, 1909, p. 198.

^{٢٨} G. Marçais, *L'architecture musulmane*, p. 102.

^{٢٩} G. Marçais, *Poteries et faïences*, p. 12.

^{٢٥} G. Marçais, *L'architecture musulmane*, p. 103.

^{٢٦} وهى العيّنة التي سبقت الإشارة إلى اختفائها من «المتحف الوطني للآثار

القديمة» بالجزائر العاصمة، ولم يعد لدينا من حولها دليل، سوى الصورة

الفوتوغرافية الرديئة التي التقطها لها اللواء دو بيل غداة اكتشافها عام

١٩٠٨ م، وكذا التفريغ الذي خصصها به مارسيه.

وإذا كنا لا نعرف تاريخ هذه العينة على وجه الدقة، فإن مكان العثور عليها بسفح قصر المنار، وكذا طبيعة شكلها الكروي، يؤكّدان أنّها قُبَيْبَة مقرنسة؛ كما يُحْمَلَانَا من جانب آخر على الاعتقاد بأنّها أحدث زمنًا من مقرنسات قصر الأمراء، ومقرنسات قصر السّلام، التي سيأتي الحديث عنها بعد قليل بالنظر إلى الظهور المتأخّر لهذا النوع من المقرنسات في تنميق مباني العمارة الإسلامية، حيث يبدو للعيان الوسط السّوري-التركي أخصب بقعة له إبان القرن السابع الهجري، الموافق للثالث عشر الميلادي^{٣٠}. وبما أنّ هذا القصر قد عرّف تعديلات أيام المنصور بن علناس آخر الأمراء الحَمَادِيّين المقيمين في مدينة القلعة، والذي أقام فيه على وجه الدقة، والتّحديد في الفترة الممتدّة بين ٤٨١-٤٨٣هـ/١٠٨٨-١٠٩٠م، قبل أن ينتقل إلى مدينة بجاية، ثالث وآخر العواصم الحَمَادِيّة؛ فإنّنا نرجّح فرضية نحتها في غضون هذه التّعديلات، والتّرميمات الأخيرة المدخلة على قصر المنار.

ولكنّ مما هو جدير بالذكر في هذا المقام إنه حتّى وإن كانت هذه العينة ذات القيمة الأثرية البالغة في ذيل ترتيب التسلسل الزمني للمقرنسات الحَمَادِيّة، فإنّها في واقع الأمر لا ينقص من أهميتها التاريخية شيء. طالما أنّ جميع نماذج المقرنسات الحجرية سمة المعالم السّورية والتركية، تؤرّخ ما بين القرنين ١٣ و١٤م. والأهمّ من كلّ ذلك، أنّها تكسّي مكانة خاصّة فيما يتعلّق بتاريخ القبة الحجرية المقرنسة ببلاد المغرب، فهي على الأقلّ أقدم نموذج لها بالمنطقة، إن لم نقل النموذج الوحيد المعروف لدينا حتّى الآن.

النموذج الثالث: بقايا المقرنسات المذبّبة (الأشكال ٧ - ١٠)^{٣١}. التي تسبق تاريخياً جميع القباب المقرنسة الواقعة في المعالم الأثرية بالعراق^{٣٢}، والشّام، وتركيا ومصر، وكافة منطقة الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط طبعاً. ولا يسبقها في ذلك غير المعالم الإيرانية، والروسية^{٣٣}. قوامها قطع جصّية متجانسة تقنياً، ومتنوّعة شكلاً، تبعاً لتنوّع المكان الذي كانت تشغله في تركيبة أجزاء القبة المقرنسة. فضلاً عن خلوّها من أية زخرفة إضافية تشغل سطوحها الخارجية على خلاف عيّنتي النموذج التالي، كما سيأتي التفصيل لاحقاً عبر القطع الأربع المتبقية لها في هذا المقام من جملة قطعها الملتقطة شهر يونيو عام ١٩٥٦م من وسط إحدى قاعات قصر السّلام (شكل ٣).

القطعة الأولى: وهي عبارة عن كتلة جصّية ضخمة (شكل ٧)، منحرفة الشكل تقريباً، حيث يُقدّر طولها الإجمالي بـ ٢٦ سم، وارتفاعها بنحو ١٨ سم، مشغولة البدن، الذي يُقدّر عرضه بـ ١٨ سم هو الآخر بحنية صغيرة برميلية الشكل، يتوّجها عقد نصف دائري، والتي تقدر أبعادها بـ ١٥ × ١٠ سم، وعلى جانبيها، يقع في كلّ واحد منها، تدرّج قائم الزاوية، أبعاده ٤٠ × ٤٠ ملم. إذ يمتدّان رأسياً على حسب امتداد الحنية الأنفة الذكر، ويستندان في الأسفل إلى قاعدة ربع دائرية الشكل؛ ومنها يتفرّع منبت حنيتين متناظرتين تماماً على ما يبدو.

^{٣١} وعينات هذا النموذج في غاية الأهمية الأثرية، ولاسيما في ما يتعلّق بالدراسات المستقبلية حول نشأة وتطور القبة المقرنسة في العمارة الإسلامية على وجه الخصوص.

^{٣٢} حول تاريخ القباب المقرنسة بالعراق، أنظر: الحدّثي عطاء وهناء عبد الخالق، القباب المخروطية في العراق، وزارة الإعلام، مديرية الآثار العامّة، بغداد، ١٩٧٤م.

^{٣٣} شرقي الرزقي، «تطور المقرنسات»، ص ٤٦-٥٠.

^{٣٠} حول مقرنسات سوريا وتاريخها أنظر:

M. Écochard, *Filiation de monuments grecs*, p. 65-110.

أمّا عن مقرنسات تركيا فأنظر:

J. Rosintal, *Pendentifs, trompes et stalactites; id., L'origine des stalactites de l'architecture orientale*, librairie orientale Paul Geuthner, Paris, 1938.

A.Ö. Dekan, *Osmali õncesianad olu türk mimarisinde mukarashi portal ortuleri*, Istanbul, 1974.

ففى الوقت الذى نجد فيه التدرّج الأيمن منها مسحوبا رأسيا على مستوى منبته، وتفرّعه من جانب الحنية المركزية نتيجة الأضرار الجسيمة التى لحقت به جرّاء كسر اعتراه على هذا المستوى، نجد التدرّج الأيسر المقابل له فى الجهة الموازية، مُزوّداً بِمَنْبِت حنية صغيرة على نمط الحنية المركزية الأنفة الذكر، عمقها ٢٠ ملم؛ إلا أنّ ارتفاعها غير تام بفعل الكسر المحورى الذى لحق بها على مَقْرَبَة من مفتاح العقد التّصّف الدائرى، المتوّج لها. وهو ارتفاع لن يكون أطول، ولا أقصر من ارتفاع الحنية المركزية من دون شك، باعتبارهما متجاورين أفقياً فى ذات الطّبقة.

وهذا كفى فى واقع الأمر بإعطاء تصوّرًا سَلِيمًا لهيئة البيت المقابل له فى الجهة اليمنى من البيت المركزى الأنف الذكر والذى سيكون، بكلّ تأكيد، مماثلا له فى أدقّ التّفصيل. وقد وُفّق الباحث مارسيه إلى حدّ بعيدٍ فى إعادة تحيّل شكله، وتصميمه العام (شكل ٧ ب). حيث يُرَجَّح وظيفة شغله الصّدر الأعلى من حنية رُكْنِيَة على حدّ ما اسفرت عليه أوجه المقاربة بينه وبين مقرنسات الحنيات الرُكْنِيَة بكنيسة بلاطين التورماندية (شكل ٧ ج) بمدينة پالرم الصّقلية.

القطعة الثانية: وهى عبارة عن كتلة يُقدّر ارتفاعها بـ ٢٦ سم (شكل ٨)، قوامها كما تبدو من منظور جانبي (شكل ٨ أ - ب)، عَصَب مركزى بارز، حيث يُقدّر عرضه بـ ٥ سم، وعمقه نحو الدّاخل بـ ٤ سم. وهو يمتدّ رأسيًا من الأسفل إلى الأعلى، كما ينتهى بانحناء خفيف نحو الخارج على هيئة كابولي. وقد تمكّن الباحث جولفان من تصوّر هيئته الكاملة (شكل ٨ ج - د)، فضلاً عن تحديده وظيفته بالمجمّع الزّخرفي، المنتمى إليه عن طريق المقارنة بينه وبين أشكال مقرنسات كنيسة بلاطين المذكورة أعلاه؛ إذ بيّنت هذه المقاربة الموقّفة من لدنه على شغل الرّكن الأيسر فى الطّبقة الثانية نحو الأسفل من موضع القطعة الأولى فى هذا النموذج (شكل ٨ هـ).

القطعة الثالثة: قوامها كتلة جصّية ضخمة (شكل ٩)، تتخلّلها حنية مركزية نصف كروية الشكل. إذ يُقدّر عرضها بـ ١٠ سم، وعمقها بـ ١٥ سم. يُؤطّرهما على الجانبين بسّطة مُدرّجة فى هيئة درج - كنف (شكل ٩ أ). أى بانفراج زاوية مفتوحة مقدارها قائمة ونصف ١٣٥°، كما تبلغ مسافة المحور الذى يربط بين نهائيّ هاتين البسّطتين الجانبيتين ١٨ سم، مُشكّلة بذلك نموذج مُصغّر لنمط المحارِب المغربية المتعدّدة الأضلاع. وهو ما يؤكّد بوضوح على أنّ العيّنة مُجرّد ربع كتلة من قطعة مُثمّنة الأضلاع. حيث كلّ ربع يقابل، وبماثل بقية الأرباع الأخرى فى كلّ شيء، كما يوضّحه اجتهاد الباحث جولفان (شكل ٩ ب)، والذى يبدو من خلاله أنّ هذه القطعة قد كانت تُشكّل مِثْمَنًا قطره ٣٧ سم، مشغولا بأربع حنيات جانبية متماثلة تمامًا، تتناوب بانتظام مع أربعة مساطب مدرّجة، وهو بكلّ تأكيد شكل القطعة، المعروفة لدى الحرفيين المغاربة بالقبّعة، أو الشّاشية حسب تعبيرهم العامّى فى الصّناعات الخشبية للمقرنسات، وهى القطعة التى تُتوّج نسيج القبّة المقرنسة، أو الطّاسة على حدّ تعبير أهل حرفة الجصّ بالمغرب الأقصى فى أيامنا هذه.

القطعة الرابعة: قوامها قطعة مشطورية إلى نصفين أفقيًا (شكل ١٠ أ)، حيث تُقدّر أبعادها التامة عقب عملية التّجميع (شكل ١٠ ب) كالآتى: ٣٠ سم فيما يخصّ الارتفاع، و ١٢ × ١٢ سم فيما يتعلّق بقاعدتها العليا، و ٤ × ٤ سم فيما يخصّ القاعدة السفلى. إذ تبدو لنا فى هيئة هرم مقلوب مقطوع التّهيأة المدبّبة. منسدل من الأعلى فى اتجاه الأسفل بانحصار طفيف منتظم عبر فضاء شاغر إلى أن يقف به المقام عند تشكيل حِلْمَة صغيرة مربّعة الشكل، أبعاد أضلاعها كما أسلفنا

٤ سم. وعلى أحد جوانب هذه القطعة تلتصق زائدة مضافة تربطها ببقية النسيج المقرنس، والتي من المؤكد أنها كانت تشغل فيه دور متوازيات السطوح المتدلّية على التّمط المّين في (شكل ١٠ ج).
 إنّ تأريخ قطع هذه العيّنة الثّمينة لأنموذج القبّة المقرنسة المّبكرة في العمارة الإسلامية، جدير بأن نُعيده إلى المرحلة الثانية من عمر الدّولة الحّمادية؛ أى مرحلة الاستقرار السّياسي، وبداية التّعمر الحضارى، والانبعث الاقتصادي، والازدهار الثّقافي بمدينة القلعة، تلك المرحلة التي يمكن ضبطها على وجه التّقريب بالفترة الممتدّة بين ٤٤٧-٤٨١ هـ / ١٠٥٥-١٠٨٨ م. أو بالأحرى أيام الأمير النّاصر بن علناس ٤٥٤ - ٤٨١ هـ / ١٠٦٢ - ١٠٨٨ م، خامس الأمراء الحّماديين، وآخر من أقام هناك بصورة متواصلة من جملة الأمراء التّسعة، المتعاقبين على عرش هذه الدّولة. والذي لم يكتف بما شيّده من مآثر حضارية بالقلعة، كقصر السّلام هذا فحسب، وإنّما تعدّاه إلى بناء معالم مدينة بجاية التي أسماها بـ النّاصرية، كعاصمة جديدة له ولخلفه^{٣٤}.

وبهذا نكون قد أعدنا مراجعة ذلك التّاريخ، الذي افترضه جولفان بنهاية القرن الثّاني عشر الميلادي، وبالضّبط أيام الأمير المنصور بن علناس ٤٨١-٤٩٨ هـ / ١٠٨٨-١١٠٧ م^{٣٥}. دون أن يأخذ في حسابه تلك الفروق التّقنية الشّاسعة، الفاصلة بين عيّنات المقرنسات الحّمادية، واختلاف مواضع التقاطها من خرائب القلعة. وهو ما يوحى للعيان بأنّها غير متعاصرة إطلاقاً.

وعليه فإنّ التّاريخ الذي تقدم به جولفان، هو تأريخ جزئي، لا ينطبق إلّا على مقرنسات قصر المنار الجصّية (النموذج التّالي) باعتبار أنّ قطع هذا الأخير هي أجمَل وأتقن عيّنات المقرنسات الحّمادية على الإطلاق؛ أضف إلى ذلك التقاطها من أحدث، وأفخم قصر بمدينة القلعة. وهو ما يُؤكّد بلا ريب تأخرها الزّمني عن العيّنات السّالفة الذكر.

النموذج الرّابع: وقوامه قطعتين كثيرًا الشّبه بقطع النموذج الثّالث (شكل ٧)، إلّا أنّ هذه الأخيرة (شكل ١١) أكثر من سابقتها اتقاناً، وتفنّناً من حيث التّصميم العام، وحذاقة الرّسوم المائية التي تشغل بطونها، وقد تمّ التقاطها عام ١٩٦٢ م بالقرب من المدخل الرّئيسي المفضى إلى قصر المنار من الجهة الجنوبية (شكل ٤). وهما الآن معروضتان بمتحف سرتا بمدينة قسنطينة (شكل ١) في إحدى واجهات قاعة قلعة بني حمّاد. حيث يقدر ارتفاع القطعة التّامة منها (شكل ١١ أ) بـ ٣٠ سم، وعمقها المُوغل في الجدران، مُتذبذباً بين ١٤,٥ سم على مستوى قاعدة البيت، و ١٨,٥ سم على مستوى القمّة. إذ تبدو هذه الكتلة الجصّية في هيئة شبه منحرف، منتصب رأسياً على قاعدة منتظمة الاستواء، يتخلّلها بيتاً مركزياً، برميلي الشّكل، ارتفاعه (٣٠) سم، وعرضه (١٥,٢) سم، لكن أبرز ما يميّز شكل هذه القطعة عن أشكال عيّنات النموذج الثّالث هو الرّاوية القائمة (٩٠°) المُشكّلة على مستوى قمّة هذا البيت، أى مفتاح العقد.

أما بخصوص زخرفتها فنجدها نباتية خالصة. قوامها لوزة بسيطة تشغل القسم السّفلى من بطن ذلك البيت، بداخلها زهرة محوّرة على هيئة كِرانة صنوبر، ويعمل هذه اللّوزة السّفلية بدن مِغزلى الشّكل من أغصان النّبات، تتفرّع من جهتيه الخارجيتين ورُيقات صغيرة مُكوّرة لِيُشكّل هذا المجمع الزّخرفي في نهاية المطاف ما يشبه شكل المزهريّة المنكّسة على فوهتها.

^{٣٤} ابن الخطيب (لسان الدّين)، أعمال الأعلام، الجزء الثّالث، تحقّق وتعلّق، L. Golvin et al., *Le Maghreb médiéval*, p. 264.
^{٣٥} أحمد مختار العبادي، ومحمّد إبراهيم الكتاني، نشر دار الكتاب، الدّار البيضاء، L. Golvin, «Note sur quelques fragments», p. 93.
 المغرب الأقصى، ١٩٦٤ م، ص ٩٧.

هذا فيما يخص عناصر الموضوع الزخرفي. أما فيما يتعلق بالألوان الموظفة فيه، فنجد ثلاثة أصباغ رئيسية: أولها اللون الأبيض النَّاصع المتخذ كخلفية لتنفيذ الرّسم. وهو بذلك يشغل كامل سطح القطعة بالإضافة إلى تلوين بتلات الزهرة التي تتوسط اللوزة. واللون البنّي الداكن لطلاء بدن الزهرية بقسميها العلوى والسفلي؛ وأخيرا اللون الأزرق الكوبلتي المستخدم في تنفيذ الخطوط العامة لأشكال عناصر موضوع الرّسم.

وأما بخصوص القطعة الثانية من هذا النموذج (شكل ١١ ب)، فهي غير مكتملة، والرّاجح أنها كانت تشكّل الرّبع الأيسر العلوى من بيت ثمائل لشكل البيت السابق. لاسيما وأنّ هذه القطعة مزدانة بأشكال زخرفية مطابقة لسابقتها، وبذات الألوان المذكورة آنفاً. وهو ما لا يدع أدنى شك في انتهاء هاتين القطعتين إلى هيكل مقرنس واحد. والذي تُرجح بشأنه فرضية الحنية الرّكنية لثلاث اعتبارات رئيسية: أولها التقاط هذه القطع من إحدى الزوايا الداخليّة، المولية للمدخل الرّئيسي؛ ثانياً قلة عددها مقارنة بعدد القطع الملتقطة من وسط قاعة قصر السلام. ثالثاً وهو بقاء آثار الحنيات الرّكنية لقبو متقاطع الأضلاع، طول أضلاع رقبته ٢٠، ٢٠م كان يُتوّج هذا المدخل البارز نحو الخارج، سمة مداخل العمارة المغربية في ذلك الوقت. حيث تبدو بقايا تخطيط المقرنسات التي كانت تشغل إحدى حنياته الرّكنية الأربعة على ارتفاع من الأرض، مقداره أربعة أمتار على حدّ شهادة الباحث جولفان^{٣٦}.

وهكذا، ومن خلال استعراض مختلف نماذج عيّينات المقرنسات الحمّادية الملتقطة من خرائب القلعة، يتّضح جلياً بأنّ جميع أنواع المقرنسات الإسلامية قد جُرّبت، واستخدمت في مبان القلعة بنجاح، وعبر مراحل زمنية متتالية، وليست متعاصرة. وهو ما يفنّد، تنفيذاً قاطعاً فرضية المُقدّم المباشر للمقرنسات من بلاد العراق، مهّد ميلادها الأوّل^{٣٧} إلى القلعة عن طريق استقدام فنّان، أو ورشة حرفية متخصصة من هناك لتزيين قصور الحمّاديين بالقلعة، باعتبار أنّ هذا العنصر لا نجده وقتها، لا في بلاد الشّام، ولا في مصر ولا ليبيا، ولا تونس. بقدر ما هو دليل دامغ على أنّ مدينة القلعة كانت فعلاً مركز إشعاع لإنتاج المقرنسات، وترويج تقنياتها نحو مختلف مناطق الغرب الإسلامي، كما سنحاول تبيان ذلك بشيء من التفصيل.

٣. اتجاهات تعميم المقرنسات الحمّادية في المنطقة

تعمّم استخدام المقرنسات عبر مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وتوسع مجال زخرفتها إلى شمل فضاء واسع من أجزاء العمارة الإسلامية خلال القرن ٦هـ/ ١٢م. وبدا في هذه المرحلة التاريخية الهامة الشّرق الإيراني بالشرق، والقلعة الحمّادية بالمغرب الأوسط كمركزين متناظرين إقليمياً، حيث شاع من كلّ واحد منهما شبكة إقليمية مُستقلّة بذاتها الفنّيّة والتّقنيّة عن بعضهما البعض، إذا ما استثنينا جزيرة صقلية على العهد النورماندى التي استطاعت المزج بين ثقافة المرّكزين في انسجام محكم، رغم التباين الواضح بين تركيبة المقرنسات المغربية، ونظيرتها المشرقية.

إذ يرجع الفضل في نقل وتوزيع هذا العنصر الزخرفي بمنطقة الحوض الغربى من البحر الأبيض المتوسط إلى مدينة القلعة الحمّادية^{٣٨}؛ حيث اتخذ منها هذا التأثير الفنّي اتجاهين متعامدين تقريبًا. أولهما في الاتجاه الشمالي الشرقي، مُستهدفًا بذلك جزيرة صقلية الإيطالية بصفة خاصّة، وقد كان ذلك في المرحلة الثانية من مراحل تطوّر الدولة الحمّادية (٤٤١-٤٨١هـ / ١٠٥٥-١٠٨٨م) حيث كان لهذه الدولة هناك سُمعة طيبة بكامل المنطقة؛ وعلى مختلف الأصعدة: السّياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثّقافية بما فيها مختلف الصّروب الفنّية. الشّيء الذى جعل منها قوة محليّة مُكتملة الجوانب، جديرة بالاحتذاء والاعتداء^{٣٩}.

فعدت إذن محلّ ثقة لبقية جيرانها على ضفتى المتوسط، وتحفيزهم على الدّخول معها في علاقات متينة في مختلف مجالات الحياة، كما يستشفّ ذلك بوضوح من العلاقات الشّخصية الوطيدة التي كانت تربط بعض الأمراء الحمّاديين ببعض البابوات في إيطاليا، وفي مقدمتهم البابا جريجوار السابع (١٠٧٣-١٠٨٥م) الذى كانت تربطه علاقات صداقة وطيدة مع الأمير الحمّادى النّاصر بن علناس، ناهيك عن بقية رجال السّياسة، والاقتصاد، كما يدلّ على ذلك نصوص ووثائق تاريخية كثيرة معاصرة للحدث، أو قريبة منه زمنيًا^{٤٠}.

أضف إلى ذلك بقية التأثيرات المعمارية الحمّادية المدنية، والدّينية الأخرى على نظيرتها التّورماندية بجزيرة صقلية خلال القرن (٦هـ/١٢م)، إبان حكم الملك روجيه الثّانى الذى حكم الجزيرة بين عام ١٠٥٤-١٠٩٥م؛ وجيوم الثّانى (١١٥٤-١١٦١م) على وجه الخصوص^{٤١}؛ شأن قصر عزيزة، وقصر القبة، وكنيسة بلاتين. وهى جميعا معالم نورماندية، تبرز التأثير الفنّي الحمّادى على مدينة بالرم في أجلى صورته، لاسيما على مستوى العناصر الإنشائية، والعناصر الزخرفية على وجه الخصوص.

هذا عن الوجّه الشماليّة الشرقيّة التي سلكتها المقرنسات الحمّادية، أمّا فيما يخصّ الوجهة الشماليّة الغربيّة فقد سلكت طريق البحر في اتجاه الأندلس، حيث وصلت إلى هناك بعض التأثيرات الفنّية من القلعة الحمّادية، مقرونة ببعض التأثيرات القيروانية، المنطلقة بدورها من المغرب الأدنى (تونس). وقد شملت هناك كلّ من مدينة المريّة الساحلية، ومدينة سرقسطة، إضافة إلى عاصمة الأندلس مدينة قرطبة، وذلك عبر مسلكين بحريين، أُستحدثا وقتها للربط بين المدن الساحلية الحمّادية، مثل مدينة عنّابة، وبجاية، ودلس، والجزائر العاصمة بنظيرتها في العدوّة الأخرى. شأن ميناء دانية بجزر الباليار على سبيل المثال، لا التّخصّيص والحصر.

Ch. Feraud, «Histoire des villes de la province de Constantine: Sétif, Bordj Bou Arréridj, M'sila et Boussaâda», *Recueil de mémoires et de notices sur la société archéologique de la province de Constantine*, édition Constantine, Alger, Paris, 1871-1872 ; H. Saladin, «Rapport deuxième note sur les monuments arabes de la Qual'a des Beni Hammed», *BACT*, Imprimerie nationale, Paris, 1905, p. 185-198.

^{٤١} عفيف البهنسى، الفنّ الإسلامى، دار الأطلس للدراسات، والترجمة، والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص ٢٧٤.

^{٣٨} P.M. Basilio, *El arte hispano-musulman en su decoración geométrica, una teoria para un estilo*, Institut hispano-arabe de culture, Madrid, 1975, p. 152.

H. Terrasse, *La mosquée*, p. 32.

^{٣٩} H. Derek and L. Golvin, *Islamic Architecture in the North of Africa*, Edited by Faber and Faber limited, London, 1976, p. 63.

^{٤٠} حول عمق العلاقات السّياسية، والاقتصادية التي كانت تربط الحمّاديين بجيرانهم التّورمانديين في صقلية، وجنوب إيطاليا أنظر: إساعيل العربي، دولة بنى حماد ملوك القلعة وبجاية، الشّركة الوطنية للنشر والتّوزيع، الجزائر، ١٩٨١.

ومن ثم فلا يُستبعد تأثير المقرنسات الحمّادية على أقدم نموذج للمقرنسات الأندلسية، والمتمثل في الشّقفات الملتقطة من خرائب مدينة المرية، والتي كانت محلّ دراسة من طرف الباحث بوتش فيلا، منذ عقدين ونيف في مقال: «المقرنسات في فنّ الطوائف بالمرية»^{٤٢}. ولعلّ ما يُعزّز مصداقية هذا الطّرح، هو العلاقات الوطيدة التي كانت تربط الحمّاديين بجيرانهم هناك، والقائمة على أساس الاحترام المتبادل، وعدم التّدخل في شؤون الغير، وإلتزام الحيّاد المطلق حيال فتنّتهم الدّاخلية، وقصّر تحركها على الجانب الإنسانى فحسب، كإيواء، وإسعاف الأندلسيين، وأمراءهم الفارّين عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م من بطش المرابطين. أمثال الأمير معزّ الدولة المعتصم بن صمّاح، حاكم مدينة المرية نفسها، وعليّ بن مجاهد العامري، أعظم ربّانة الأسطول الإسلامى الأندلسى قبل انكسار شوكتها، وكذا صاحب دانية. حيث اقتطع لهم الحمّاديون مُستعمرة صغيرة على أراضيهم بجوار ميناء دلس، وأحوازه بشرق مدينة الجزائر العاصمة^{٤٣}. زيادة على امتيازاتهم التّجارية السّابقة، المحفوظة لهم على مستوى ميناء عّابة بأقصى الشّرق الجزائرى، وميناء بجاية بمنطقة القبائل الكبرى على وجه الخصوص (شكل ١).

فاستقرّ بموجب ذلك عنصر المقرنسات، وتغلّغت جذوره هناك حتى القرن السّابع عشر الميلادى تاريخ نقله إلى القارة الأمريكية مع حملة الاستعمار الإسبانى على أمريكا اللاتينية^{٤٤}. ومنذ تلك اللّحظة بالذات عاد بذلك المقرنسات الإسلامى شاملاً لمختلف قارّات العالم دون استثناء، وهى رحلة طويلة لم يبلغها عنصر زخرفى قديم مثله في حدود إطلاعنا المتواضع.

وأما عن الوجهة الثّالث والأخيرة، فهى وجهة أفقية غربية تقريباً، ضمّت الأراضى المرابطية في المغرب الأقصى، مروراً بمدينة تلمسان الحدودية التي كان يطيلها التّفوذ السّياسى الحمّادى تارة، والتّفوذ السّياسى المرابطى تارة أخرى على مرّ عقود طويلة من الزّمن. حيث نشهد فيها أقدم نموذج لبقايا المقرنسات اليوم بمسجدها الجامع، الذى ابتناه المرابطون في غضون القرن ٠٦هـ / ١٢م. وكذلك بجامع القرويين بمدينة فاس، وقبة الباروديين بمراكش. ولو أنّ التأثير العمارى الحمّادى على نظيره المرابطى لا يقتصر على عنصر المقرنسات فحسب، وإنّما سبقته تأثيرات فنيّة، ومعمارية من قبل، ولا سيما في مجال التّحصين العسكري، كما تؤكّد ذلك بقايا العمائر العسكرية المرابطية، المشيّدّة من طرف الأمير يوسف بن تاشفين بمدينة مراكش. حيث تبدو تصاميمها، وأساليب تنفيذها مُحاكية لما هى عليه جارتها في مبان القلعة، ومدينة المهديّة الزّيرية بتونس، ولا سيما على مستوى مدخلها المركزى المزدان بحنية مجوّفة طويلة، كثيرة الشّبه بحنيات واجهة قصر المنار، وكذلك الواجهة الرّئيسية من مئذنة الجامع الأعظم بالقلعة دائماً^{٤٥}.

^{٤٢} H. Terrasse, «L'art de l'Empire moravide, ses sources et ses origines», *StudIsl* XIII, Paris, 1955, p. 27-29. ^{٤٣} J. Boschevilla, «Mocarbes on el arte de la taifa de el meria», *CHI* 8, Granada, 1977, p. 139-160.

^{٤٣} شرقى الرزقى، «تطور المقرنسات»، ص ٩٠.

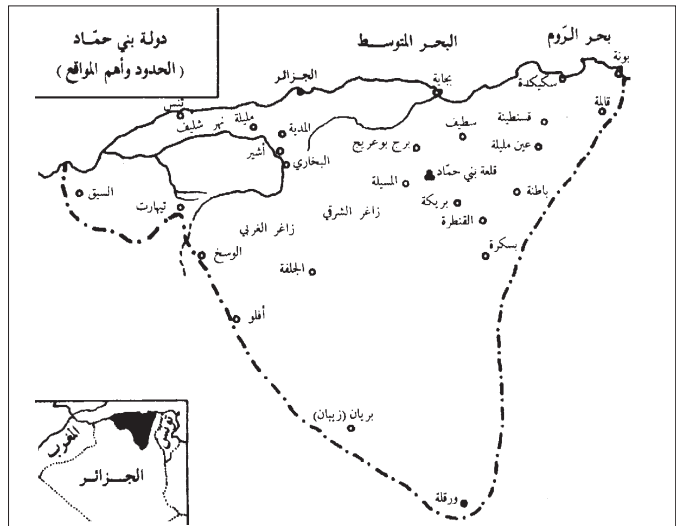
^{٤٤} P. Fernandez, «Mukarnas», p. 500-501.

خاتمة

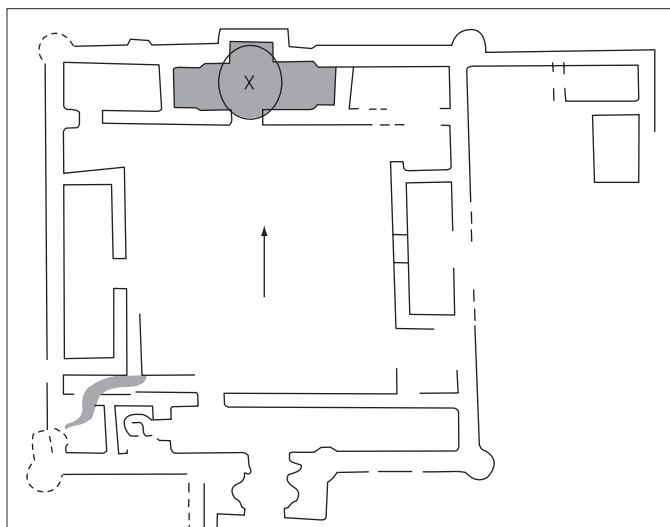
انطلاقاً من استعراض نماذج المقرنسات المتنوعة، التي عرفتها القلعة الحمّادية أيام عزّها وازدهارها، والتي تبدو للتّناظر، وكأنتها متحفاً قائماً بذاته لعرض المقرنسات الإسلامية، أو ورشة متخصصة في صنع المقرنسات بتصاميم متنوّعة ساحرة؛ وبالتّظر إلى طبيعة العلاقات الخارجية التي كانت تربط الدولة الحمّادية بدول الجوار، القائمة على مبدأ الاحترام المتبادل، ورعاية المصالح المشتركة، وعدم التّدخل في الشؤون الداخليّة للغير إلاّ في حدود ما تسمح به الضّرورة الإنسانيّة، وما انجرّ عليها من تحقيق للأمن والسّلام والطّمأنينة لشعوب المنطقة، وتفعيل حركة الاحتكاك الثّقافي والتّبادل الحضاري، وبعث التّعاون الإقتصاديّ بينها وبين أقرانها الأقربين أفلا يحقّ لنا تعزيز ما تنبأ به الباحث أولج جربار الأنف الذكر، والذي مفاده أنّ القلعة الحمّادية تشكّل بحق مركزاً إقليمياً لصناعة وترويج عنصر المقرنسات بالغرب الإسلامي على غرار مركز الشّرق الإيراني؛ علماً أنّ هذا الباحث لما أصدر حكمه، لم يكن متوقّفاً على ما هو متوفّر لدينا اليوم من المعطيات العلميّة الواضحة.



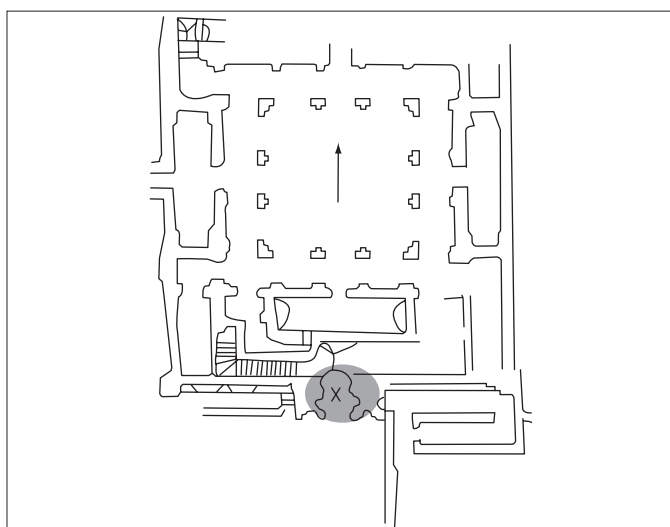
شكل ٢. المرافق العامة المكتشفة خلال أشغال السّبر والتنقيب الأثرى بمدينة القلعة الحمّادية (نقلًا عن لوسيان جولفان).



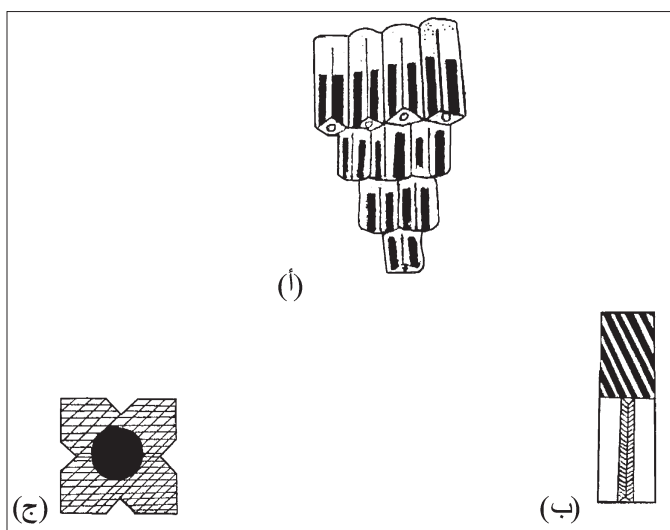
شكل ١. الحدود التقريبية للدولة الحمّادية في مستهل منشأها (نقلًا عن عويس عبد الحليم).



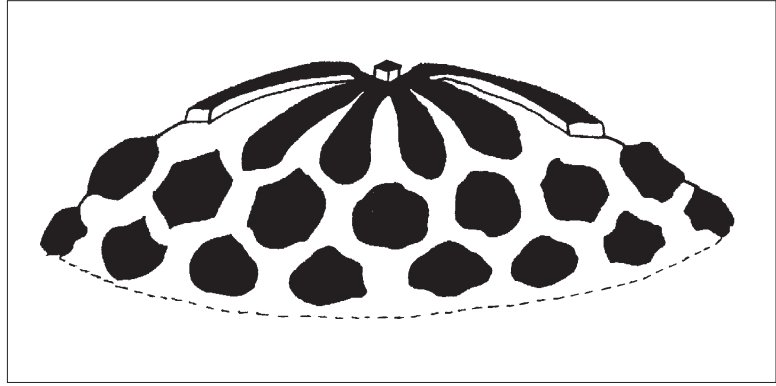
شكل ٣. موضع التقاط المقرنسات الحَمَّادِيَّة من قصر السلام عام ١٩٥٦م (نقلًا عن لوسيان جولفان).



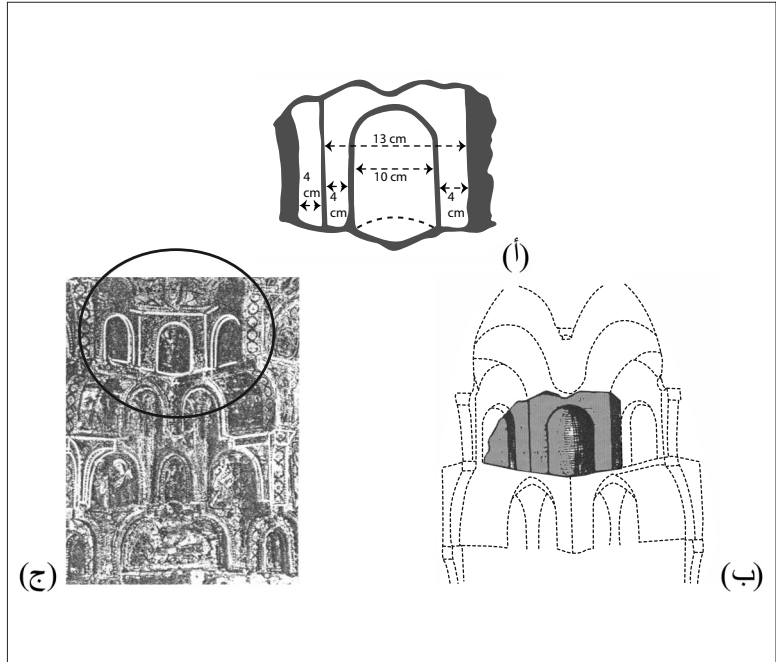
شكل ٤. موضع التقاط المقرنسات الحَمَّادِيَّة من قصر المنار عام ١٩٦٢م (نقلًا عن لوسيان جولفان).



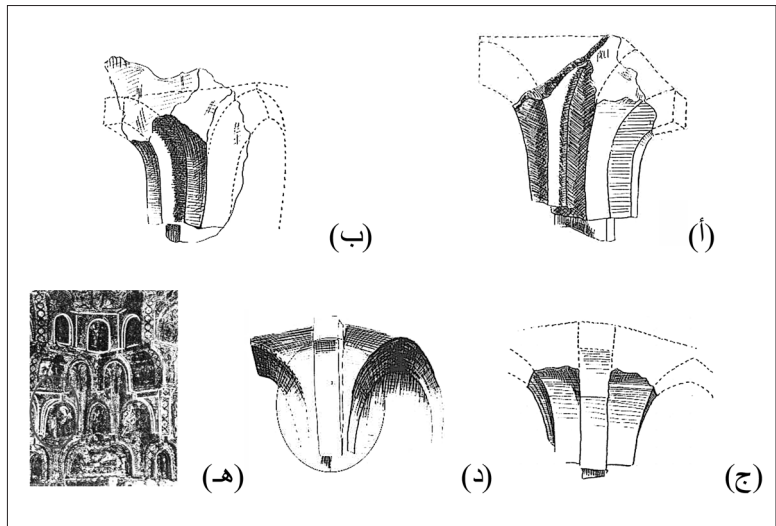
شكل ٥. الدليلات المتوازية السطوح التي تم العثور عليها بالقلعة لأول مرة في حفريات اللواء ليون دو بيلي عام ١٩٠٨م بقصر الأمراء قبل أن يتأكد تعميم استخدامها في باقى معالم القلعة الأخرى على حد تأكيد الحفريات اللاحقة.



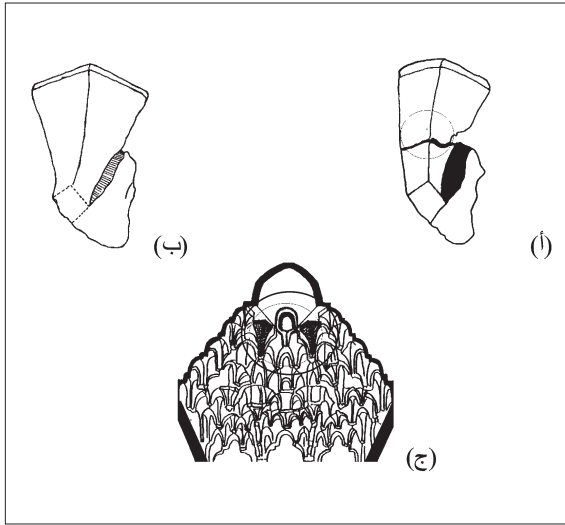
شكل ٦. تفريغ للنموذج الوحيد من المقرنسات الحجرية الحمادية الذى عثر عليه دوبيلى عام ١٩٠٨م بسفح قصر المنار المطل على وادى فرج (نقلًا عن جورج مارسيه).



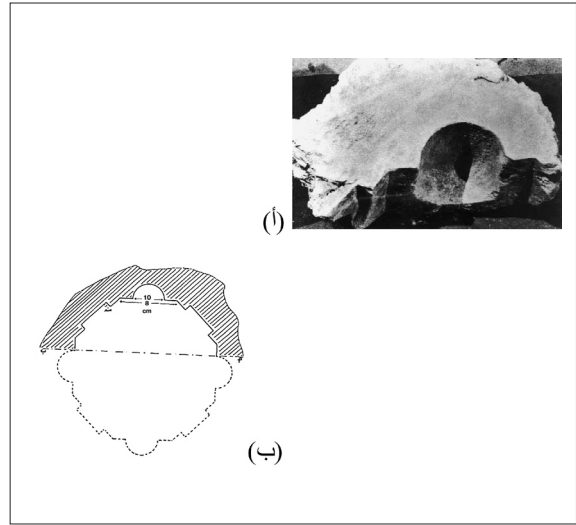
شكل ٧. قطعة أولى من بقايا المقرنسات الحمادية المكتشفة بقاعة قصر السلام عام ١٩٥٦م من طرف لوسيان جولفان فى محاولة لتصوير موضعها الصحيح مقارنة مع مقرنسات حنية زخرفية مماثلة فى كنيسة بلاتين النورماندية بمدينة بالرم.



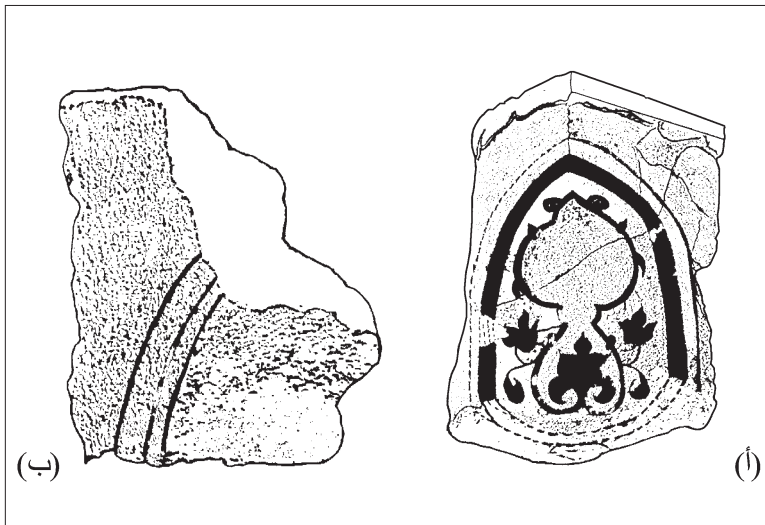
شكل ٨. قطعة ثانية من بقايا المقرنسات الحمادية المكتشفة بقاعة قصر السلام عام ١٩٥٦م من طرف لوسيان جولفان فى محاولة لتصوير موضعها الصحيح مقارنة مع مقرنسات حنية زخرفية مماثلة فى كنيسة بلاتين النورماندية بمدينة بالرم.



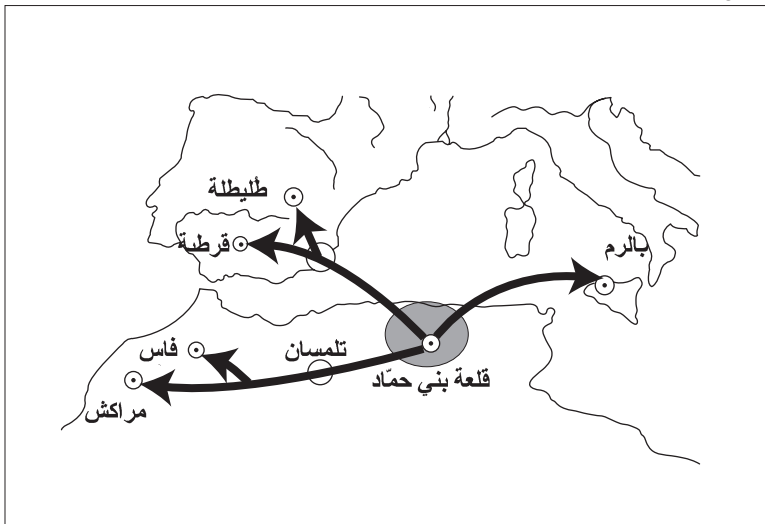
شكل ١٠.



شكل ٩.



شكل ١١.



شكل ١٢.

شكل ٩. قطعة ثالثة من بقايا المقرنسات الحَمَّادية المكتشفة بقاعة قصر السلام عام ١٩٥٦م من طرف لوسيان جولفان تؤكد بوضوح أنها كانت تشغل قطب القبة المقرنسة وهو ما يعرف لدى الحرفيين المغاربة اليوم بالشاشية.

شكل ١٠. قطعة رابعة من بقايا المقرنسات الحَمَّادية المكتشفة بقاعة قصر السلام عام ١٩٥٦م من طرف لوسيان جولفان في محاولة لتصوير موضعها الصحيح مقارنة مع مقرنسات حنية زخرفية مماثلة في قصر عزيزة النورماندى بمدينة بالرم.

شكل ١١. تفرغ للقطعتين المقرنستين المكتشفتين بالمدخل الجنوبي من قصر المنار عام ١٩٦٢م من طرف لوسيان جولفان والمعرضتين حالياً بإحدى وجهات قاعة قلعة بني حماد بمتحف سيرتا بمدينة قسنطينة.

شكل ١٢. خريطة تقريبية توضح مسار توجه المقرنسات الحَمَّادية بمنطقة الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين ٥-٦هـ/١١-١٢م.